تجربة

أيقظه صاحبه من شروده منبِّهًا إلى دوره.. وكانت البرودة قد سرت في أوصاله، وتركزت في أطرافه.. وغشى الضباب رؤيته.. قام متحاملًا على نفسه.. شمل اللاحقين له بنظرة خائفة بين ابتسامته الخجلى.. يكاد يقول: خذوني..

التفت إلى صاحبه.. ذلك الذي انتصب بجانبه، وهمس له:

- لِمَ ترتعش هكذا؟! ادخل ولا تخف..

ثم مشجعًا:

- ادخل.. ألست رجلًا؟!

ثم بشيء من العصبية، وقد علا صوته:

- هيا.. ادخل.

تأمل الباب المغلق تطويه الحيرة.. وقد ظلَّلت محياه ابتسامة خائفة.. لا يدري.. أيطرق الباب.. أم يدخل دون استئذان.. أم..! امتدت يده بصعوبة ليمسك المقبض.. ضغطه إلى أسفل لينفتح الباب.. وصاحبه يتتبعه بعينين قلقتين.. ليتلقى منه نظرة الذاهب إلى الإعدام.. ضحك صاحبه في نفسه.. وأخيرًا، خطا الحائر خطوة إلى الداخل.. توقف ونظره إلى قدميه.. لا يعرف.. أيواصل خطاه؟.. أم.. أم يرفع رأسه.. مرت لحظات ثقيلة.. فوجئتْ به.. ألقتْ عليه نظرة بزاويتي عينيها.. التفتتْ نحوه.. علتها الدهشة!.. مرت لحظات أخرى أشد ثقلًا عليه.. فوجئ بجسدها يحتك به عندما أغلقت الباب..

صحا على صوتها الذي تصنعت فيه الرقة.. رد عليها بالصمت.. كررت.. رفع رأسه.. أخذته الدهشة.. فهي فارعة الطول.. متكورة الأجزاء.. ضخمة الصدر.. تلبس قميصًا يغطي من جسدها القليلَ.. ملطخة الوجه بصبغات متباينة.. فاقعة الألوان.. رخيصة.. دعته بإيماءة من رأسها وابتسامة دعوة.. خطا في بحر النار.. اقترب منها.. وقف.. نظر إلى نهديها أو قربتيها!.. استطاع بعد جهد أن ينظر إلى عينيها.. طالت النظرة.. ارتعشت جفونه.. أسبلها.. تلاشى بعض من خجله.. دنت منه.. ابتسمت له.. ما زالت تحمل نظرتها معنى السخرية.. ببساطة، ارتكزت بمرفقيها على كتفيه، وأحاطت وجهه بكفيها.. باعد رأسه عن أنفاسها.. رنت ضحكتها.. احمرت أذناه وأنفه.. التفت ناحية الباب المغلق.. أحس برأسه تدور.. أمسكتْ يديه.. سحبته إلى الفراش.. خلعت قميصها.. أعضاؤها متناسقة.. ولحمها طري شهي.. جذاب اللون.. جف حلقه.. اضطجعت على الفراش.. دعته.. صدع إلى أمرها.. جلس بجانبها كالمنوَّم.. انزاح عنه بعض آخر من الخجل.. أسئلة كثيرة طرحتها عليه.. أجاب وفق ما يعلم ويخبر.. إنها تجربته الأولى! كتمتْ صرخة دهشة.. شملته بنظرة خبيرة.. البضاعة ما زالت بكرًا مليئة بالخيرات.. رشفت لعابها، تلمست جسدها وتحسسته.. تأوّهتْ وتلوَّتْ وتثنتْ.. حركات غريبة!.. لكنها.. نسي نفسه.. خلع بُرقع الحياء، واختلس النظرات إلى مواضع بعينها.. اجتذبتْ عينيه.. أسَرتْها.. تحركت مشاعره.. استطاع أن يمسك راحتها..

وأن يضغط على أصابعها.. شعرت الأنثى بقوته.. دغدغتها.. نادرًا ما تصادف ذلك الصنف.. تهيجت كوامنها.. أسبلت جفونها.. شعرت برعشة يده.. تلك التي زحفت نحو صدرها.. اثنان يتناقشان بالخارج.. اختطف يده.. حاول أن ينهض.. لم تدعه يهرب.. شدته إليها.. لوتْ عنقه، وانقضت على شفتيه.. الخَدَر يسري في كل أعضائه، والنشوة تحتويه.. نسي صاحبه.. بل نسي الدنيا بأسرها.. صرخت الرجولة في أعماقه.. تجمعت في رأسه.. وانسابت إلى يديه وأصابعه؛ لتعبث وتتحسس وتضغط هنا.. وهنا.. و.. أثملته الأنوثة.. احتدت الأصوات بالخارج.. نزع نفسه من بين أحضانها..

- إنه عريض الصدر.. غزير الشعر.. إنه عملاق..

نظر إليها.. كانت عارية تمامًا.. الأنثى متجردة أمامه.. من أجله.. تتأوّه له.. تدعوه بعينيها ويديها.. وأعضاء أخرى تنتفض له.. بل تستصرخه..

طرقٌ على الباب.. تذكر أمه حين توقظه كل صباح.. لم تنسَ مرة أو يأخذها النعاس.. التفتَ ناحية الباب.. بقايا ضميره تئنّ.. صوت الأنوثة أقوى وأشد طغيانًا.. استعرتْ النيران.. والأنوثة تتضرع له.. تتوسل إليه.. فيض من أسباب اللذة ينساب تحت قدميه.

- لا تبكِ يا ضميري.. بل.. ابكِ كما يحلو لك.. فلن أنصت إليك.. وأنت يا مَن تطرق فلتغرب عني أو لتنتظر.. إنها الآن لي.. ولكم من بعدي..

تخلّص من ملابسه.. أصبح مثلها.. لم يعد للحياء مكان في أحاسيسه.. اتسعت ابتسامتها.. تدفقت الدماء

في عروقه.. تأهب.. تدفعه حمى الشباب.. فجأة، سمع صراخ طفلة.. بل سوط جاب ظهره وأدمى أذنيه.. التفت ناحية الصراخ.. أصابه الذهول.. طفل بالفعل يتقلب بين كومة من القماش.. يواصل الصراخ.. كأنه غاضب أو ثائر أو مستنكر.. برد جسده على الفور.. وهي في قمة هياجها.. عادت تجذبه.. يداه باردتان!.. وتراخ أصابه.. كان ساهمًا يرنو إلى الطفل.. وقد تبدلت كلَّ ملامحه.. واختلط وجهه بتعبيرات الألم.. شفتاه كالثلج.. لا يشعر بوجودها.. حاولت وحاولت.. فكيف تدعه يفلت.. كيف؟! أبَى جسده أن يستجيب.. انمحت رغبته.. تحول بصره عن ثدييها.. ابتعدت الأنثى وتلاشت.. حلت الأم.

- أولى بهاتين الحلمتين أن تلفَّهما شفتا الصغير الرضيع..

لبس ملابسه في التو.. لم يلتفت إليها.. هرول.. فتح الباب.. خرج من المكان وعيناه تدمعان في لوعة.. وكان قد نسي صاحبه.. ولم يكرر التجربة.